تَوْظِيفُ الأَبْنِيَة الصَّرفيَّة دَلَالِيًّا فِي السُّلَّم الحِجَاجي فِي لَامِيَةِ الْعَجَمِ عِنْدَ الطُّغْرَائِي

د. محمد مصطفى القطاوي*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٢٠/٥/٢٨م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/١٠/١٢م.

ملخص

يهدف هذا البحث إلى محاولة الكشف عن الأبعاد الجمالية والقيم الفنية وذلك كأدوات في السلم الحجاجي عند الطغرائي، وذلك في قصيدته الشهيرة بين المنتدبين باسم المئة العجم.

وفي هذا الصدد سيعمد البحث إلى انتخاب مجموعة منتقاة من الصيغ الصرفية المختلفة، والتي توزعت في ثنايا قصيدته تلك، ثم بيان كيفية توظيفها في السلم الحجاجي عند الطغرائي.

وقد ثبت لدينا من عدة وجوه أن هناك حضورا بارزا الصيغ المصرفية في شعره. فقد احتلت بعض الصيغ عنده مواضع خاصة وبارزة حيث لجأ إليها مرارا وفي أكثر من سياق وعرض شعري حتى يصل إلى طريقته الفنية في تصميم المعاني بالقوالب والأبنية الصرفية.

وقد وفق الشاعر كثيرا في استلهام الأبعاد الجمالية للعديد من الصيغ والأبنية والتي وظفت عنده بدقة فائقة وذلك كوسيلة إقناعية في إثبات فرضيات ونتائج سلمه الحجاجي.

يشار إلى أن الشاعر قد تخطى بعض الصيغ على حساب بعضها الآخر، إذْ سجل بعضها حضورًا بارزًا أكثر من غيرها وذلك لتحقيق أغراض فنية في السلم الحجاجي.

الكلمات الدالة: الخطاب الجمالي، السلم الحجاجي، اسم الفاعل، اسم المفعول، صيغ المبالغة.

* قسم اللغة العربية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Morphological Patterns and their Semantic Role in the Argumentation Style: A study of Lamiyyat Al-Ajam of Al-Taghrai Poet

Dr. Mohammad Mustafa Al-Qattawi

Abstract

This paper aims at discovering the role of the morphological patterns in the famous poem known in literary criticism as “Lamiyyat Alajam” by alTughrai as opposed to the main Arabic poem “Lamiyyat al-Arab” by al-Shanfara.

This study also tries to point out the argumentational style used by al-Tughrai in his poem. In order to fulfill this purpose, we have quoted many examples selected according to the various patterns in his “Lamiyyah”.

We have come to a conclusion that al-taghrai have implemented many morphological patterns in his “Lamiyya” as a means of argumentation throughout a stylistic features context. This has , of course, been shown throughout his “Lamiyyah” by comparing the patterns and its position in the whole “Lamiyyah”.

It should be noted that we have found some morphological patterns that appear occasionally in the “Lamiyyah” when compared with other patterns. This ,of course, shows the importance of these patterns when compared with others.

Keywords: Argumentational address, Argumentational ladder, Past participle, Ism alfail, Intensive forms.

تقديم:

يمثل السُّلَّم الحِجَاجي محورًا رئيسًا من محاور التداولية المعاصرة، حيث ثبت من عدة وجوه أنَّ السُّلَّم الحِجَاجي يمكن اللجوء إليه في مواقف كثيرة للوصول إلى كُنْهَ الخِطَاب التداولي الحديث، حيث تحتل الصِّيغ الصَّرفيَّة بأبنيتها المتعدِّدة ومعانيها الرحبة مكانًا بارزًا في الخِطَاب التداولي الحديث، وفي هذا البحث سجَّلنا عدَّة صيغ صرفية لتكون أنموذجاً على السُّلَّم الحِجَاجي في قصيدة مشهورة في التراث العربي وهي لامية العَجَم للإمام الطُّغرائي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في:

١. أنَّها تتعامل مع طرح جديد في التناول الأدبي يُعنى بالسُّلَّم الحِجَاجي.
٢. إعادة تناول لامية العجم الشهيرة من وجهة نظر لغويَّة معاصرة.

أهداف الدراسة:

تروم هذه الدراسة:

١. للكشف عن أدوات السُّلَّم الحِجَاجي عند الطُّغرائي وطريقة توظيفها في الأنموذج الشِّعري عنده.
٢. متابعة الأبنية الصَّرفيَّة والصِّيغ المختلفة وطريقة انتظامها في اللامية.

أسباب الدراسة:

لعلَّ من أسباب هذه الدراسة هو:

١. التعرف على البنية النظمية للصِّيغ الصَّرفيَّة في لامية العجم.
٢. إمكانية الوصول إلى بنية المعجم الشِّعري عند الطُّغرائي.

حدود الدراسة:

اقتصرت حدود الدراسة على اللامية المشهورة بين المتأدبين بلامية العجم للإمام الطُّغرائي.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة السير وفق المنهج الوصفي الاستقرائي للصِّيغ والأبنية الصَّرفيَّة المختلفة في لامية العجم.

صاحب نظرية الحِجَاج ونشأتها:

ترجع أصول نظرية الحِجَاج إلى واضعها العالِم اللُّغوي الفرنسي أوزناك ديكرو الذي قام بوضع أسسها في عام ١٩٣٧م، من أجل الاهتمام بالوسائل اللُّغويَّة، والاعتماد على الإمكانيات الطبيعية القائمة على التوجيه، الذي يعتبر غاية الخطاب الحِجَاجي، بحيث يحرص المتكلم من خلاله على " توجيه المتلقي إلى وجهةٍ واحدة دون سواها، والتي يمكن للمخاطَب أن يسير فيها"(١).

الحِجَاجُ لغةً:

إنَّ مصطلح الحِجَاج عند المعجميين هو "مفهوم يجعله قاسمًا مشتركًا بين الجدل والخطابة"(٢)، حيث يتم فيه معالجة المشكلات الكلامية عبر الحُجَّةُ الكلامية التي يتخذها المتكلِّم على خصمه في المجالس والمناظرات أمام الناس، وهو "وَجْهُ الظَّفْرِ عند الخصومة، والفِعل حاجَجْتُه فَحَجَجْتُهُ، واحَتَجَجْتُ عليه بكذا، وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ، والحِجَاجُ المصدر"(٣).

وقد أرجع الخليل بن أحمد مفهوم الحج إلى "كثرة القصد إلى مَنْ يُعَظَّم، قال:

كَانَتْ تَحُجُّ بَنُو سَعْدٍ عِمَامَتَهُ إِذَا أَهَلُّوا عَلَى أَنْصَابِهِم رَجَبَا(٤)

وإلى ذلك ذهب ابن منظور، حيث قال: "والحجُّ: قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضًا وسنةً، تقول: حججتُ البيتَ أَحُجُّهُ حَجًّا إذا قصدته"(٥).

(١) الدريدي، سامية. (٢٠٠٨). الحِجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص٢٣.

(٢) صوله، عبد الله. (٢٠٠١). الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط١، دار الفارابي، بيروت، ص٨.

(٣) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. (١٩٨١). معجم كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط١، دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، مادة "حَجَجَ"، (١٠/٣).

(٤) المصدر السابق، مادة "حَجَجَ"، (٩/٣).

(٥) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (١٩٩٠). لسان العرب، ط١، دار الفكر، بيروت، مادة "حَجَجَ"، (٢٢٦/٢).

وجاء في المثل من كلام العرب "لَجَّ فَحَجَّ"(١)، فهو "رجل مِحْجَاج بالكسر؛ أي: جَدِلٌ"(٢)، وعلى ذلك يكون مصطلح الحِجَاج هو المرادف لـ "النزاع والخصام بواسطة الأدلة والبراهين والحُجَج، فيكون مرادفًا للجدل"(٣).

ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾(٤)، إلَّا أنَّ هناك "فرقًا دقيقًا رقيقًا بين معنييّ اللفظين في استخدام القرآن"(٥)، أشار إليه ابن عاشور حيث قال: "معنى حاجَّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة...، ومن العجيب أن الحُجَّة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى، مع أنَّ حاجَّ لا يستعمل غالبًا إلا في المخاصمة...، والأغلب أنَّه يفيد الخصام بباطل"(٦)، ثم عقَّب على ذلك عبد الله صوله بقوله: "الجامع بين معنييّ اللفظين هو المخاصمة، لكنَّها في الحِجَاج قائمة على الباطل...، في حين أنَّ الجدل منه ما هو حقٌّ، ومنه ما هو باطل..."(٧).

وقد شاع ذلك في العصر العباسي "شيوعًا يسوغ لنا أنْ نسميه عصر المناظرات، حيث كانت قصور الخلفاء وبيوت الوزراء والكبار من رجال الشعب وحوانيت الورَّاقة مجالسَ علم ومقامات للتناظر بين العلماء، وكان الناس يهتمون بنتائج هذه المناظرات بين أصحاب المذاهب الفقهية، ورجال الكلام، والنحويين واللغويين، ولعلَّ هؤلاء كانوا أكثر من غيرهم، إذ كان منهم المؤدبون لأولاد الخلفاء والوزراء، وكلٌّ يريد أن يظهر على نظيره؛ لينال بشهرته خطوة أكثر، ومكانة أرسخ وأجر أعظم"(٨).

(١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. (٢٠٠١). تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٥١/٣)؛ والميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. (د.ت). مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (١٩٧/٢).

(٢) الرازي، محمد بن أبي بكر. (د.ت). مختار الصحاح، عين بترتيبه: محمود خاطر بيك، (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، مادة "حَجَجَ"، ص١١٦.

(٣) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص١٠.

(٤) [البقرة: ٢٥٨].

(٥) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص١١.

(٦) ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤). التحرير والتنوير، ط١، الدار التونسية للنشر، تونس، (٣٢/٣-٣١).

(٧) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص١١.

(٨) الزَّجَّاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السَّري. (١٩٨٨). معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، (١٥/١).

الحِجَاجُ اصطلاحًا:

لقد وُجِدَ الحِجَاج في كل نتاج الشعوب سواء أكان ذلك عند العرب أم عند الغرب.

أولًا: الحِجَاج عند العرب:

أمَّا عند العرب فقد وجد الحِجَاج منذ العصر الجاهلي، ولقد "تمثل ذلك في المنجزات الخِطَابية والمناظرات القبلية، ثم تنامت الخِطَابات التي تجسِّد هذه الاستراتيجية بعد البعثة المُحَمَّديَّة في كثير من السياقات، وتبلورت في كثير من العلوم، مثل: علوم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والعلوم اللغوية، كما أنَّ الإقناع كان مطية أطراف الخِطَاب في المسامرات وعقد الندوات والنقاشات، فكانت استراتيجية الإقناع بمختلف آلياتها هي السبيل الأقوم؛ لإبراز مقاصد تلك العلوم وأفكارها وآرائها"(١).

ولعلَّ الحِجَاج كان هو الاستراتيجية المتبعة في تراثنا اللغوي، فها هو الجاحظ في كتابه "البيان والتبين"، يفصِّل الحديث فيما يخصُّ الخطيب من أمور يكون لها أعظم الأثر في وصول مبتغاه إلى السامعين، يقول الجاحظ: "إذا كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيدًا عن الاستكراه، ومنزَّهًا عن الاختلال مصونًا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة"(٢).

وقد تحدث الباجي في منهاجه واصفًا الحِجَاج بأنَّه: "من أرفع العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا؛ لأنَّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حُجَّة ولا اتضحت محجَّة، ولا عُلِمَ الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم"(٣).

ولقد عرَّفه ابن أبي الإصبع المصري بتعريف يقترب به من مفهوم الجدل وذلك على أنَّه: "احتجاج المتكلِّم على ما يريد إثباته، بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام، ومنه نوع منطقي تُستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة"(٤).

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (٢٠٠٤). استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ص٤٤٧.

(٢) الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر. (١٩٩٨). البيان والتبيين، تحقيق: موفق شهاب الدين، ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٩٩.

(٣) الباجي، أبو الوليد. (١٩٨٧). المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد التركي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، المغرب، ص٨.

(٤) ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر المصري. (١٩٥٧). بديع القرآن، تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف، ط١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص٣٧٠.

ثانيًا: الحِجَاج عند الغرب

أخذ الحِجَاج عند الغربين النصيب الأكبر من البحث والدرس في الدراسات اللسانية المعاصرة، وعليه يمكن القول إنَّ المصطلح (Argumentation) في الدراسات اللسانية الحديثة تُـرْجِمَ بالحِجَاج"[١]، والذي يقصد به عند الباحثين "سلسلة من الحِجَج تتجه جميعها نحو نفس النتيجة"[٢]، ولقد تم عرض ذلك بعدة رسومات بيانية، عُبِّر من خلالها إلى مفاهيم ثلاثة مراحل قام بترجمتها عبد الله صوله مع بعض التصرف في كتابه "الحِجَاجُ في القرآن"[٣]، وذلك على النحو التالي:

الأول: يمثل حِجَاجًا ذا ثلاثة أركان أساسية، هي: المعطي أو المصرَّح به، ويرمز له بـ "م"، والنتيجة ويرمز لها بـ "ن"، والضمان – يكون ضمنيًا – ويرمز له بـ "ض"، ويصاغ على النحو:

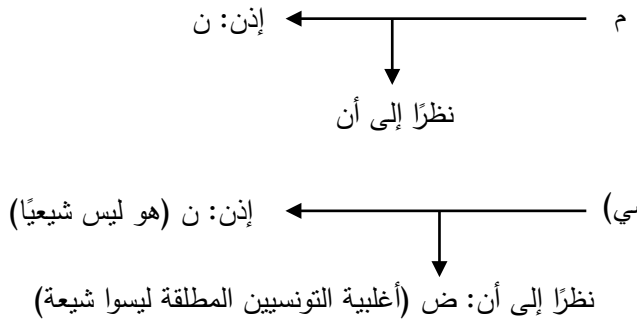

الثاني: يمثل حِجَاجًا أدق من السابق بإضافة الموجَّه ويرمز له بـ " ج "، والاستثناء ويرمز له بـ " س "، الذي يحمل عناصر رفض القضية، ويصاغ على النحو التالي:

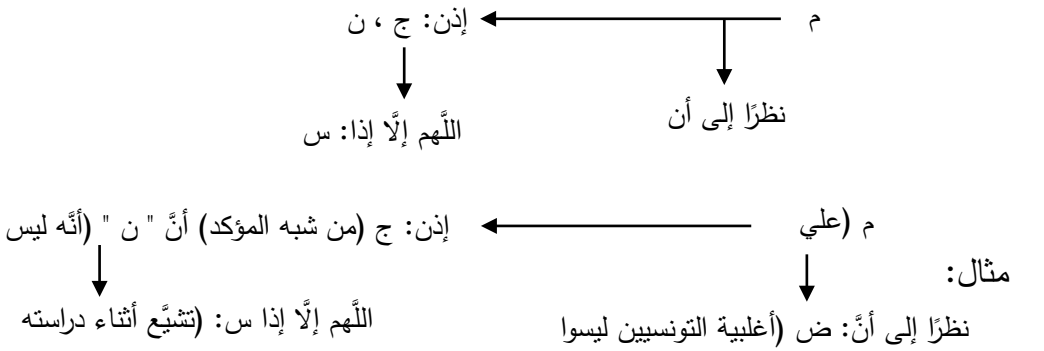

(١) بوخشة، خديجة. (٢٠١٠). الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، ص٢١.

(٢) طروس، محمد. (٢٠٠٥). النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ص٨.

(٣) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٣–٢٥؛ وبوجادي، خليفة. (٢٠٠٩). في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص١٠٨–١١٠.

الثالث: يمثل حِجَاجًا أكثر دقة، بإضافة عنصر الأساس " أ "، الذي يبنى عليه الضمان " ض "، فيكون على النحو التالي:

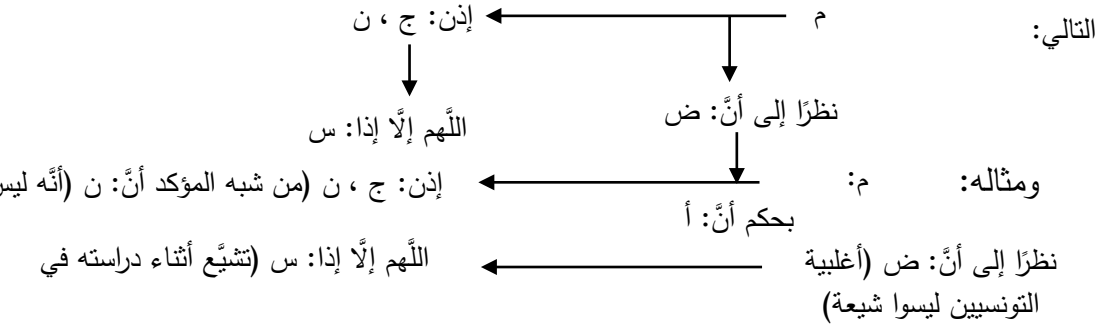

بحكم أنَّ: أ (نسبة الشيعة لا تكاد تذكر في تونس) "فقد تكون أقل من ١٪ وهو إحصاء تقريبي"

وعلى الرغم من دقة هذا المفهوم، إلَّا أنَّنا وجدنا لعبد الله صوله تحفُّظًا عليه، حيث يقول: "... وقد آتى اجتهاد تولمين هذا أُكله وبدأ في صورته المنضجة في الرسم الثالث خاصَّة من الرسوم الثلاثة المعروضة آنفًا.

لكنَّ اللافت للانتباه في نموذج تولمين الحِجَاجي هذا أنَّه ويا للمفارقة غير حِجَاجي إذا اعتبرنا أنَّ الحِجَاج يرمي إلى إقناع الغير، وإنَّما هو أقرب إلى صناعة البرهان في المنطق"(١).

ولقد انبنت بعض الأعمال العربية التي تناولت الحِجَاج في الدراسات اللسانية الحديثة على المزاوجة بين القديم العربي والحديث الغربي، ومن أبرز هذه الأعمال ما قام به الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، فعرَّفه بقوله: "الحِجَاج كل منطوق به موجَّه إلى الغير؛ لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"(٢)، ولكنَّه عاد فيما بعد فوضع مفهومًا أكثر دقة من التعريف السابق، فقال: "لا خطاب بغير حِجَاج، ولا مُخاطِب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة المدعي، ولا مخاطَب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة المعترض"(٣)، وبناءً على هذا التعريف تكون العلاقة الحِجَاجية أصلًا في كل خطاب لغوي يقوم على العملية التواصلية التي من خواصه أنَّه "يأتي كشكل

(١) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٦.

(٢) عبد الرحمن، طه. (١٩٩٨). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص٢٢٦.

(٣) عبد الرحمن، طه. (٢٠٠٠). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص٨١.

من أشكال التواصل والتخاطب والحوار"[١] بين المتكلم والسامع مركزين على المعاني اللُّغويَّة للحِجَاج في المتمثل في القصد والغلبة بالحجة.

أولًا: الفرق ما بين الحُجَّة والنتيجة:

فرق اللسانيون ما بين الحُجَّة والنتيجة بالآتي:

أ. **مفهوم الحُجَّة:**

هي نظريةٌ لسانيةٌ اهتمت باستراتيجية الخِطَاب الهادف إلى الاستمالة، وذلك "بغية التأثير في السامع أو المخاطَب أو مواساته أو إقناعه بالوسائل اللسانية، والمقومات السياقية التي تجتمع لدى المتكلم أثناء القول، من أجل توجيه خطابه والوصول إلى بعض الأهداف الحِجَاجية"[٢].

ب. **مفهوم النتيجة:**

هي ما يتوصل إليه البحث في نهايته، وذلك من خلال شرط " تتابع المقدمات وحيثيات البحث وإجراءاته"[٣].

ثانيًا – الفرق ما بين الحِجَاج والمنطق:

فرق اللسانيون بين مصطلحي الحِجَاج والمنطق بما يأتي:

أ. الحِجَاج هو:

أدلةٌ وبراهين يخلص إليها الباحث بعد مجموعةٍ تسرد من الحقائق أو المسلَّمات التي تفضي إلى رأي ذي حجَّة.

ب. المنطق هو:

نوعٌ من الاستدلال العقلي، وليس شرطًا أن يكون مستندًا إلى أدلةٍ واقعية يقوم بها المتكلم، بل يُكْتَفى فيه بالنظر والاستدلال العقلي.

(١) عشير، عبد السلام. (٢٠٠٧). عندما نتواصل نغيِّر: مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط١، دار إفريقيا الشرق للنشر والتوزيع، المغرب، ص١٢.

(٢) عشير، عبد السلام. عندما نتواصل نغيِّر: مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص٧٦.

(٣) الحباشة، صابر. (٢٠٠٨). التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، ط١، مركز صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ص٢٣.

أصناف الحِجَاج:

يمكن تقسيم الحِجَاج إلى ضربين، وهما: (الحِجَاج التوجيهي، والحِجَاج التقويمي):

أولًا: الحِجَاج التوجيهي

ويتمثل هذا الحِجَاج في "إقامة المتكلم على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، عِلْمًا بأنَّ التوجيه يقرُّ فعل إيصال المستدل لحجَّته إلى غيره، فقد ينشغل المستدل بحجته لأقواله، ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المُخَاطب لها ورد فعله عليها، مما يجعله يولي اهتمامًا لقصده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة، متناسيًا الجانب العلائقي للاستدلال، هذا الجانب الذي يصله بالمُخَاطب، ويجعل هذا الأخير متمتعًا بحق الاعتراض"(١).

ويتمثل هذا "النوع من الحِجَاج بالأفعال اللُّغويَّة التي تفي فقط بالجزء الذي يخصُّ المرسل من الاستدلال...، ويعدُّ هذا الصنف في مستوى أدنى من مستوى الحِجَاج التقويمي، وذلك لأنَّ المرسل يكتفي بقصده فقط في تكوين حِجَجَه وتنظيم خِطَابه...، وكأنَّ المرسل في هذا العمل لا يقيم وزنًا كبيرًا للمرسل إليه، إذ يكتفي فقط بمجرد إيصال حِجَجَه للمرسل إليه دون توقُّع أي اعتراضات منه"(٢).

وهنا يبرز اهتمام المرسل أو المتكلِّم ببناء خِطَابه من ناحية الاهتمام بالجوانب اللُّغويَّة وبالحديث عن الأدوات اللُّغويَّة كـ "حروف العطف التي تعمل على ترتيب حِجَجَه ووصل بعضها ببعض، واستعمالها بوصفها روابط حِجَاجِيَّة...، وهنا يكمن دور الروابط الحِجَاجية واستثمار دلالاتها في ترتيب الحِجَج، ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفصِّل مواضع الحِجَج، بل وتقوِّي كل حجة منها الحجة الأخرى"(٣).

ثانيًا: الحِجَاج التقويمي

قد يفترض المرسل أثناء حِجَاجه افتراضًا متخيلًا من المرسل إليه، وذلك تحسُّبًا لأي اعتراضاتٍ قد يُواجَه به خطاب المرسل، من خلال معارضتها بالحِجَج التي يتوقعها من المرسل إليه، والمقصود بالحِجَاج التقويمي: "هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرِّد من نفسه ذاتًا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر إلى فعل إلقاء الحُجَّة إلى المُخَاطب...، بل يتعدَّى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أوَّل متلقٍّ لما يلقى ...

(١) عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٧٠-٤٧١.

(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٧٢-٤٧٣.

وهكذا، فإنَّ المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، مراعيًا كل مستلزماته التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية ..."(١).

وبناءً على ذلك يكون دور "المُخَاطب المُتخيَّل الذي يحتويه المتكلِّم فعليًا، يؤدي أساسًا وظيفتين: إحداهما حِجَاجية والأخرى حوارية، وأولاهما منبثقة من الثانية؛ لأنَّه انطلاقًا من الأجوبة المتخيلة التي يفترض أن تكون مطروحة في المقام يكون مسار الكلام وطبيعة مكوناته البلاغية واللُّغويَّة...، فعامل الحضور العياني فيه يعدُّ مصدر إلهام الصور وأساس التفاعل مع المقام، ذلك التفاعل الذي يعمل على تشكيل الحوار"(٢).

وقد يعمد المرسل على مواكبة الخِطَاب الحِجَاجي باستراتيجيات أخرى، يهدف من استعمالها إلى ما يسمى عند البلاغيين بالاستدراج، وهو ما يطلق على: "بعض أساليب الكلام وهو ما يكون موضوعًا لتقريب المخاطب والتلطُّف به، والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة، كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات؛ ليكون مسرعًا إلى قبول المسألة"(٣)، وبهذا يتوصل المتكلِّم إلى هدفه الإقناعي من خلال خِطَابه.

مميزات الحِجَاج:

يتميز الحِجَاج بخمسة ملامح رئيسة(٤)، وهي:

أولاً: توجيه الحِجَاج إلى مستمع: يتوجَّه الحِجَاج بواسطة المرسل الذي "يوجِّه خِطَابه نحو المرسل إليه، سواء أكان سامعًا أم قارئًا"(٥)، إذ إنَّ "غاية كل حِجَاج أن يجعل العقول تذعن بما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحِجَاج ما وُفِّق في جعل حد الإذعان تقوى

(١) عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٨.

(٢) الأمين، محمد سالم ولد محمد. (٢٠٠٠). مفهوم الحِجَاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٨(٣)، ص٧٠.

(٣) العلوي، يحيى بن حمزة. (١٩٩٥). كتاب الطراز، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٣٧.

(٤) روبول، أوليفي. (١٩٩٦). هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، ترجمة: محمد العمري، مجلة علامات في النقد، جدة، ٦(٢٢)، ص٧٧.

(٥) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٥٨.

درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وُفِّق على الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة"(١).

ثانياً: التعبير عن الحِجَاج بلغة طبيعية؛ لأنَّ من طبيعة الخِطَاب الحِجَاجي خلق الصِّيغ اللُّغويَّة التي تكون "أقدر على التأثير في اعتقاد المُخاطب وتوجيه سلوكه، لما يهبه هذا الإقناع من قوة واستحضار، كأنَّه يراها رأي العين"(٢)، وذلك لئلا يدعُ " للشك أو التساؤل مجالًا حتى عند الحديث عن البدهيات، باستباقه أسئلة المرسل إليه المتوقعة بالجواب الذي هو عبارة عن الحِجَاج ذاته...، وبهذا يكون المرسل إليه على بَيِّنَةٍ من أمره"(٣).

ثالثاً: الحِجَاج هو مسلَّمات لا تعدو أن تكون احتمالية، وهذا يقتضي الاتصال ما "بين الخطيب والمستمع، والاستدلال اللازم والمناسب في خطابه"(٤)، بحيث ينطلق المرسل أو المخاطِب "من مُسَلَّماتٍ تكون في أغلبها احتمالية، ويبني عليها حِجَاجه للوصول إلى أهدافه وغاياته، والتي عادةً ما تجعل المتلقي أو المُخَاطب يقتنع ويذعن لما يقوله المتكلِّم، وبهذا كان ميدان الحِجَاج هو الاحتمال ومجاله الحوار والنقاش والخطاب"(٥).

رابعاً: عدم افتقار الحِجَاج في تقدُّمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية، إذ إن الخِطَاب الحِجَاجي ليس خطابًا حاملًا لأدلة وبراهين فـ "ليس من الضروري أن يكون لكل تعبير صحة حِجَاجية"(٦)، مما يعني أنَّه "يمكن ملاحظة ملفوظات غير مقبولة منطقيًا، ومع ذلك فهي مقبولة وموجودة في الخطاب"(٧)، ولكنَّ هذا الخِطَاب ربما لا يخضع للمنطق، ولكنه ربما يعبِّر "عن تصوُّر معيَّن اعتمادًا على بعض المعطيات الخاصَّة بكلٍّ من المُحَاجِج والمقام، وبالتالي يكون الحِجَاج عرضة

(١) الطلبة، محمد سالم محمد الأمين. (٢٠٠٨). الحِجَاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، (د.ط)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) عبد الرحمن، طه. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٣٨.

(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٥٨.

(٤) حامدة، ثقبايث. (٢٠١٢). قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، (رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، ص٤١.

(٥) غبار، مليكة وآخرون. (٢٠٠٦). الحِجَاج في درس الفلسفة، (د.ط)، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ص٤٢.

(٦) شارودو، باتريك. (٢٠١٢). الحِجَاج وإشكال التأثير، ترجمة: ربيعة العربي، مجلة الحوار المتمدن، ع(٣٥٩٧)، ص٢٩٩.

(٧) بوخشة، خديجة. (د.ت). محاضرات في اللسانيات التداولية، (د.ط)، (د.ن)، الجزائر، ص٦٦.

للتغيير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعًا لتغيُّر المقام وتغيُّر ظروف المحاجج"(١).

خامسًا: نتائج الحِجَاج ليست ملزمة، الخِطَاب الحِجَاجي عرضة للتغيير، فهو قراءة للواقع وتبعًا لتعدد الرؤى، إذ إنَّه "قد يتباين فعل الحِجَاج ونوعه...، وهذا عائد إلى ما تستدعيه العناصر السياقية بكل تنوعاتها واختلافاتها...، ولكن من الأفضل أن يُعزى هذا الاختلاف في المعنى إلى المعرفة المشتركة حول أهداف كل من طرفي الخِطَاب أو المحادثة"(٢)، فقد يتفق الطرفان وقد يختلفان، ولكنَّ الاختلاف يظلُّ بينهما ملازمًا للاقتناع بالحِجَج المقدمة وإثباتها، وذلك من خلال "القضايا التي تعرض عليهما أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة، ويُبنى – كذلك – على التفاعل والاختلاف في الرأي، وأن يظل مفتوحًا أمام النقاش والتقويم، وأن يحضر في أنماط الخِطَاب كلها التي تفزع منزعًا تأثيريًا، لا يقين فيه، ولا إلزام لنتائج الخِطَاب الحِجَاجي"(٣).

السُّلَّم الحِجَاجي:

قدَّم ديكرو (Ducrot) مفهومًا فنيًا للحِجَاج، وهذا المفهوم يستند فيه على دلالة "العلاقات المودعة في الخِطَاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية، والخاصية الأساسية للعلاقة الحِجَاجية لتكون قابلة للقياس بالدرجات؛ أي أن تكون واصلة بين سلالم"(٤).

وعليه يرى الباحث بأنَّ السُّلَّم الحِجَاجي هو بمثابة الأدلة أو الآراء التي يتكئ تاليها على سابقها، بحيث يشكل في النهاية قاعدةً قوية متينة يركن إليها في الدراسات الحِجَاجية.

ثمَّ جاء بعد ذلك (بيرلمان وزميله وتيتيكاه) فوضعا عدة تعريفات للحِجَاج من أهمها، قولهما: "موضوع نظرية الحِجَاج هو درس تقنيات الخِطَاب"(٥)، ... حيث يعتمد الخِطَاب الحِجَاجي على تقنيات مخصوصة، إذ إنَّ وظيفة الحِجَاج تكون حينئذٍ هي وظيفة اللُّغة الأولى، معتمدًا على توظيف السُّلَّم الحِجَاجي في تحليله للخطاب، ويمكن تقسيم تقنيات الحِجَاج إلى(٦):

(١) الأمين، محمد سالم ولد محمد. مفهوم الحِجَاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص٦١.

(٢) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٦٣.

(٣) مجموعة من الباحثين. (٢٠١٠). الحِجَاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، (٤/١).

(٤) الحباشة، صابر. التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، ص٢١.

(٥) صوله، عبد الله. الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٧.

(٦) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٥٣.

١. الأدوات اللُّغويَّة الصَّرفة، مثل: ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي، والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللُّغوية، والحِجَاج بالتبادل، والوصف، وتحصيل الحاصل.
٢. الآليات البلاغية، مثل: تقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة، والبديع، والتمثيل.
٣. الآليات شبه المنطقية، ويجسدها السُّلَّم الحِجَاجي بأدواته وآلياته اللُّغوية، ويندرج ضمنه كثير منها، مثل: الروابط الحِجَاجية: (لكن، حتى، فضلًا عن، ليس كذا فحسب، أدوات التوكيد)، ودرجات التوكيد، والإحصاءات، وبعض الآليات التي منها الصِّيغ الصَّرفية، مثل: التعدِّية بأفعل التفضيل، والقياس، وصيغ المبالغة"[١]، ولقد ركَّز اللسانيون "على السُّلَّم الحِجَاجي بوصفه عمدة في الحِجَاج"[٢].

آلية الخِطَاب الحِجَاجي:

يعتمد الخِطَاب الحِجَاجي في أساسه على العلاقات التي ترتبط بقصد المتكلِّم، وتدفع بالمتلقي إلى الاقتناع وفقًا لما يقتضيه السياق، وذلك من خلال الأدوات اللُّغويَّة المتمثلة في تأثير "صلب فعل الحِجَاج في تدافع الحِجَج وترتيبها حسب قوتها، إذ لا يثبت غالبًا إلَّا الحُجَّة التي تفرض ذاتها على أنَّها أقوى الحِجَج"[٣] الذي يرسلها المتكلِّم، ويرى أنَّها تمثل القوة اللازمة التي تدعم حجته، وهذا الترتيب يسمى السُّلَّم الحِجَاجي[٤].

سمات السُّلَّم الحِجَاجي:

يتَّسم السُّلَّم الحِجَاجي بسمتين، هما:

١. كل قول يردُ في درجة "ما" من السُّلَّم، يكون القول الذي يعلوه دليلًا أقوى منه بالنسبة إلى "ن".
٢. إذا كان القول "ب" يؤدي إلى النتيجة "ن"، فهذا يستلزم أنَّ "ج" أو "د" الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح، إذا:
   - حصل زيد على الشهادة الثانوية.
   - حصل زيد على شهادة الإجازة.
   - حصل زيد على شهادة الدكتوراه.

(١) المرجع السابق، ص٤٧٧.
(٢) المرجع السابق، ص٤٥١.
(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٩٩-٥٠٠.
(٤) المرجع السابق، ص٥٠٠.

فإنَّ هذه الجمل تتضمن حِجَجًا تنتمي إلى نفس الفئة الحِجَاجية، وتنتمي – أيضًا – إلى نفس السُّلَّم الحِجَاجي، فكلها تؤدي إلى نتيجة مضمرة من قبيل كفاءة زيد أو مكانته العلمية، ولكنَّ القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السُّلَّم الحِجَاجي، وهو حصول زيد على درجة الدكتوراه، إذ إنَّه يعتبر هو أقوى دليلٌ على مقدرة زيد وعلى مكانته العلمية، ويمكن الترميز لهذا السُّلَّم كما يلي:

ن = الكفاءة العلمية.

د = الدكتوراه.

ج = الإجازة.

ب = الشهادة الثانوية[١].

ويمكن تمثيل هذا في السُّلَّم الحِجَاجي التالي:

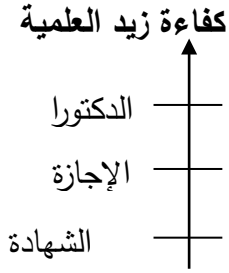

قوانين السُّلَّم الحِجَاجي:

أجمع اللسانيون على أنَّ هناك ثلاثة قوانين تَحْكُم السُّلَّم الحِجَاجي، وهي:

١. قانون الخفض: وهذه تسمية أطلقها الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، ومقتضاه "أنَّه إذا صدق القول في مراتب معيَّنة من السُّلَّم، فإنَّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها[٢]، ويمكن تمثيلها بالسُّلَّم الحِجَاجي الآتي:

ناصر من أكفأ الضباط؛ فقد: نال ميدالية التقدير من الدرجة الأولى، ونال وسامَ الملك فيصل من الدرجة الأولى، ونال مؤخرًا وسامَ الملك عبد العزيز من الدرجة الثانية.

(١) العزاوي، أبو بكر. (٢٠٠٩). اللغة والحجاج، (د.ط)، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت – لبنان، ص٦١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٧٧.

كفاءة ناصر

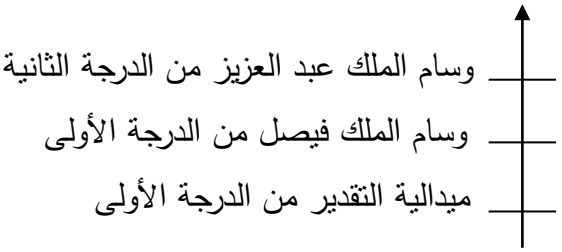

وهذا يعني أن نيل ناصر لـ " ميدالية التقدير هي حُجَّة أولى على كفاءته، كما أن حصوله على الوسام الثاني هو حُجَّة أقوى من الحُجَّة الأولى، أما الوسام الثالث المتمثل بنيله وسامَ الملك عبد العزيز؛ فهو أقوى الأدلة أو الحُجج على كفاءته، ونيل ناصر لأحد الأنواط أو الجوائز مبنيٌّ على نيله لما دونه، حسب ما تقتضيه الأنظمة"(١).

هنا نجد المرسل يختار "حِجَجَه التي تنتسب إلى سُلَّم واحد، بما يضمن له التسلسل وصولًا إلى قصده، وعدم تناقضها، بل ليؤكد كل منها ما قيل قبلها، أو ليؤكد ما هو مضمر في درجات السُّلَّم لمدلول واحد، ولذلك فإنَّ المرسل يبدأ بأدناها مرتبةً، فيرتِّب المرسل حِجَجَه في سلَّميَّة واحدة"(٢)، إذ إنَّ "الحِجَّة الأعلى هي الحِجَّة الأقوى في دلالاتها على كفاءة ناصر، وبهذا فكلُّ دليل يستلزم منطقيًا ما تحته من أدلة"(٣).

٢. قانون النفي: أو ما يسمه طه عبد الرحمن بقانون تبديل السُّلَّم ومقتضاه "أنَّه إذا كان القول دليلًا على مدلول معيَّن، فإنَّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله"(٤)، فلو أخذنا المثال السابق وطبقناه على قانون النفي بالقول: ليس طيِّبًا مع جيرانه، "لكنَّ قوة النفي تترتَّب ترتيبًا عكسيًا، إذ إنَّ نفي ما يقع في أدنى السُّلَّم، هو نفيٌ أقوى لمدلول الخِطَاب، فنفي طيبته مع والديه دليل أقوى من كل الأدلة الأخرى على عدم فعل أخلاقه، ونفي طيبته مع أصهاره نفي أقوى لطيبته مع خصومه"(٥).

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٠٠-٥٠١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠٣.

(٤) عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٧٨.

(٥) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٠٣.

٣. قانون القلب: ومقتضى هذا القانون أنَّه "إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معيَّن، فإنَّ نقيض الثاني أقوى من نقيض الأوَّل في التدليل على نقيض المدلول"(١)، ولهذا القانون ارتباط وثيق بالقانون السابق؛ أي قانون النفي، حيث إنَّ "السُّلَّم الحِجَاجي للأقوال المنفية هو عكس الأقوال الإثباتية"(٢).

الجانب التطبيقي:

توظيف المشتقات الصَّرفية دلاليًا في السُّلَّم الحِجَاجي في لامية العجم عند الطَّغرَّائي:

طرائق تحقق السُّلَّم الحِجَاجي في لامية العجم:

يتحقَّق الحِجَاج الخِطَابي في اللُّغة باستخدام المرسل والدفع بالمتلقي للاقتناع وفق ما يقتضيه السياق بإحدى استراتيجيات الإقناع وترتيبها المتمثلة في آليات السُّلَّم الحِجَاجي، من خلال استخدام إحدى الصِّيغ الصَّرفيَّة وتوجيهها في محور الدراسات الحِجَاجية، وذلك عن طريق استعمال الأدوات اللغوية، منها: (الصفة، واسم الفاعل، واسم المفعول، وأفعل التفضيل، وصيغ المبالغة، والمصدر)، وفيما يلي عرض لكل منها مع بيان دوره في الخِطَاب الحِجَاجي.

أولاً: توظيف الصفة المشبهة

تأتي الصفة المشبهة بوصفها إحدى الصِّيغ الصَّرفيَّة "المصوغة لغير تفضيل؛ لإفادة نسبة الحدث إلى موصوفها، دون إفادة الحدوث"(٣)، وهي إحدى استراتيجيات الإقناع "التي تمثل حِجَّة للمرسل في خِطَابه، وذلك بإطلاقه لنعت معيَّن في سبيل إقناع المرسل إليه"(٤)، في أحد مقامات الخِطَاب والمحادثة والحوار والتفاعل بين المتخاطبين، إذ لا يمكن للمرسل أن يقصد بالخِطَاب الحِجَاجي "تصنيف الموصوف بالنظر إلى السمات التي تشركه مع العناصر التي ينتمي إليها فحسب، ولكنَّه يعبِّر غالبًا عن تحديد موقفه منه، وطريقة الحكم عليه ومعالجته لها؛ ليؤسِّس عليها المرسل فعلًا حِجَاجيًا، وبهذا فإنَّ "الصفة تمثل أداة في الفعل الحِجَاجي وعلامة عليه، فلا يقتصر المرسل على توظيف معناها المعجمي، أو تأويله، بل يبتغي التقويم والتصنيف واقتراح النتائج التي يريد حصولها أو

(١) عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٧٨.

(٢) مجلة المنارة. (د.ت). الحِجَاج في اللغة، الصفحة الثقافية، تاريخ الاطلاع: ٢٠٢٠/٤/٥م، منشور على الموقع الإلكتروني:www.al-manarah.com ، ص٥.

(٣) ابن هشام، أبو عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري. (١٩٩٧). شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق وشرح: محمد خير طعمة حلبي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ص٢٣٦.

(٤) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٨٦.

فرضها، وهذا ما يمكن اعتباره من خصائص الخِطَاب الطبيعي في الممارسة الحِجَاجية؛ ليمارس المرسل أكثر من فعل واحد، بالتصنيف وبتوجيه انتباه المرسل إليه ما يريد أن يقنعه به في حِجَاجه"[١]، وذلك من خلال توظيف الصفة وتتبع استعمالاتها، إذ يُعدُّ اختيار النعوت والصفات من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحِجَاج الخطابي، فالصفات تنهض بدورٍ حِجَاجي يتمثَّل في كون الصفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع، ويبدو أنَّ هذا خاصية حين نجد صفتين متناظرتين، ولكنهما متعارضتان[٢]، ونظير ذلك ما جاء في قول الطُّغرائي:

حُلْـوُ الفُكَاهَـةِ مُـرُّ الجِـدِّ قَـدْ مُزِجَـتْ بِشِـدَّةِ البَـأْسِ مِنْـهُ رِقَّـةُ الْغَـزَلِ[٣]

حيث تتمثل المُحَاجَجَة الإقناعية في المقابلة الصريحة في اختيار الشاعر لصيغتين مشهورتين متقابلتين، تتمثل في قوله: "الحلو والمر" في صدر البيت "حُلْوُ الفُكَاهَةِ مُرُّ الجِدِّ"، ثم استطاع أن ينفذ الشاعر إلى مبتغاه عن طريق المزج بين الصفتين الضِّدين في قوله: "حُلْوُ الفُكَاهَةِ مُرُّ الجِدِّ"، ويتمثَّل هذا في قمة السُّلَّم المتمثِّل في شدة البأس، فهي الذروة التي يصبو الشاعر للوصول إليها، لكنَّه مرَّ بمراحل أخرى تتمثل في حلاوة الفكاهة، ومرارة الجد، وشدة البأس، ورقَّة الغزل، وعليه يكون السُّلَّم الحجاجي:

(١) المرجع السابق، ص٤٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨٨.

(٣) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. (د.ت). شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، شرح: الإمام جلال الدين السيوطي، تدقيق: أحمد علي حسن، (د.ط)، مكتبة الآداب، القاهرة، ص٧.

ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر:

يَحْمُــونَ بِــالْبِيضِ وَالسُّــمْرِ اللَّــذَانِ بِــهِ سُــودُ الغَــدَائِرِ حُمْــرُ الحُلَــى وَالحُلَــلِ[١]

حيث جاءت الصفتان المشبَّهتان "سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحُلَى" متقابلتين في الشطر الأخير من البيت الثامن عشر؛ لتشغل في السُّلَّم الحِجَاجي ذروة القوة والفتوة التي يتحلى بها مقاتلو قومه، ويوجد في البيت مقابلات جميلة بين "البِيْضِ وَالسُّمْر"؛ لتمثل بذلك الأطراف الأربعة للسُّلَّم الحِجَاجي، حيث ابتدأ الشاعر ببيان المنعة والقوة التي يتحلَّى بها الرُّماة من أبناء قومه، وكما أنَّها تتمثَّل في السيوف والرِّماح المتينة غير اللَّينة، وكذلك توظيفه المظهر المخيف للرُّماة المتمثِّل في الغدائر السود؛ لتأتي بعد ذلك الصفتان المشبَّهتان المتقابلتان في قوله: "سُوْدَ، وَحُمْرَ" في غاية بيان منعة وقوة الرُّماة من أبناء قومه، وعليه يكون السُّلَّم الحِجَاجي كالآتي:

شمائل ومؤهلات رماة قبيلة ثعل الطائية

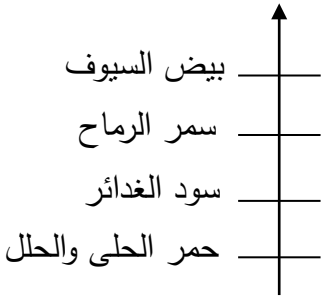

ثانياً: توظيف اسم الفاعل

لمَّا كان الإقناع هو لبُّ العملية الحِجَاجية، باعتباره أثرًا مستقبليًا يتحقق بعد التلفظ من قِبَل المرسل، فإنَّ لاسم الفاعل نماذج وصفية يرسلها "المرسل في خِطَابه بوصفها حُجَّة؛ ليسوِّغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، لتتبني عليه النتيجة التي يرومها"[٢]، وذلك انطلاقًا من أنَّه أحد الأوصاف الدالة على "المعنى المجرد الحادث وعلى فاعله"[٣]، وأمَّا دلالة "اسم الفاعل على المعنى المجرد الحادث، أغلبية فلأنَّه قد يدلُّ – قليلًا – على المعنى الدائم أو شبه الدائم...، ودلالته على ذلك المعنى المجرد مطلقة؛ أي لا تفيد النص على أنَّ المعنى قليل أو كثير، فصياغته الأساسية محتملة لكلِّ واحد

(١) المرجع السابق، ص٨.

(٢) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٨٨.

(٣) الفوزان، عبد الله صالح. (٢٠٠١). تعجيل الندى بشرح قطر الندى، ط٢، مكتبة الرشيد، الرياض، ص٢٦٧.

منهما"[1]، ونظير ذلك مجيء اسم الفاعل كأداة من أدوات السُّلَّم الحِجَاجي، وذلك بتوظيفه لصيغتي اسم الفاعل في البيت الرابع من قصيدة الطُّغرائي في قوله:

نَــاءٍ عَــنِ الأَهْــلِ صِــفْرُ الكَــفِّ مُنْفَــرِدٌ كَالسَّــيْفِ عُــرِّيَ مَتْنَــاهُ عَــنِ الْخِلَــلِ

حيث إنَّ "نَاءٍ" اسم فاعل من الفعل الثلاثي "نأى"، إذ إنَّ الشاعر استطاع أن يوظِّفه للدلالة على استغراق البُعد عن الأهل، وأردف بعد ذلك بقوله باسم فاعل آخر "مُنْفَرِدٌ"، وهو مُؤكدٌ حِجَاجيًا للبُعد عن الأهل والاتسام بالانفراد، مثل: السيف الذي عُرِّيَ عن الصدأ والخِللَ، ويتمثل التَّدرج السُّلَّمي الحِجَاجي عند الشاعر فيما يلي: في أنَّه جعل الانفراد كالسيف هي قمة السُّلَّم الهرمي، ويسبقها النأي عن الأهل وهو ما ابتدأ به الشاعر قوله في البيت، ثم عقَّب بخلو كفيه وذلك من خلال قوله: "صِفْرُ الكَفِّ" دلالةً على الإفلاس، في حين تأتي التعرية عن الخلل في ذيل السُّلَّم الحِجَاجي، وعليه يكون السُّلَّم الحِجَاجي:

ذروة الانفراد والتفرد عن القريب والصديق

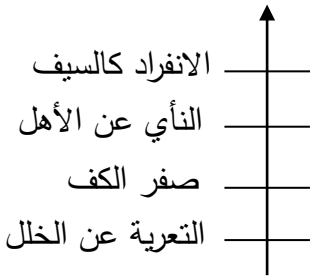

ومنه ما جاء في البيت التاسع عشر من قصيدته، حيث قال:

فَسِــرْ بِنَــا فِــي ذِمَــامِ اللَّيْــلِ مُعْتَسِــفًا فَنَفْحَــةُ الطِّيــبِ تَهْــدِينَا إِلَــى الْحِلَــلِ[2]

استعمل الشاعر صيغة اسم الفاعل "مُعْتَسِفًا" الذي صِيْغَ من الفعل الخماسي "اعتسف"، وهو يُعنى به السير على غير هُدًى؛ أي خبط عشواء، حيث أُقْحِمَ في السُّلَّم الحِجَاجي بعد ذِمَام الليل، ففي غمرة ظلال الليل وحُلْكتهِ يأتي المشي المُعْتَسِف على غير هُدًى، ولا شكَّ أنَّ الشاعر بلغ بهذه الصِّيغة غايةً حِجَاجية تتمثَّل في عدم الاهتداء وانعدام الهدى، لكنَّ الأمل والبريق يأتي من نفحة الطيب التي جاءت

(١) حسن، عباس. (د.ت). النحو الوافي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، (٢٣٨/٣).

(٢) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص٩.

في الشطر الثاني من البيت؛ فهي التي ستُخرج الشاعر من هذا النفق المظلم، ويمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي كما يلي:

الوصول إلى الغاية التي يرومها الشاعر في تحقيق مبتغاه

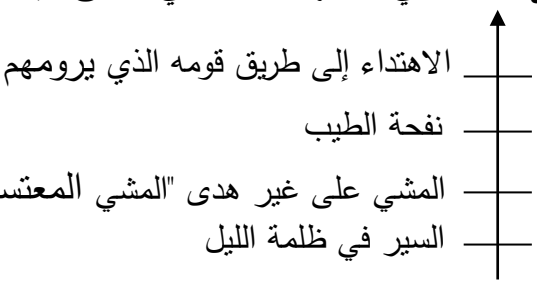

ذَيَّلَ الشاعر سُلَّمَه الحِجَاجي بالسير في ظلمة الليل، وقد اتبع ذلك في المرحلة الثانية بالمشي المُعْتَسِف، الذي هو على غير هُدًى، لكنَّ الشاعر في الشطر الثاني بدأ يُلَوِّح ببارقة الأمل، حيث جاءت نفحة الطيب في المرحلة الثالثة في هذا السُّلَّم؛ كي تُبَشِّر بوجود بارقة الأمل، والتي تتمثل في نهاية المطاف إلى الوصول والاهتداء لطريق قومه، ومثله ما جاء – أيضًا– في البيت العشرين، وذلك في قوله:

فَالحِـبُّ حَيْـثُ العِـدَا وَالأَسْـدُ رَابِضَـةٌ حَـوْلَ الكِنَـاسِ لَهَـا غَـابٌ مِـنَ الأَسَـلِ[1]

يأتي اسم الفاعل "رَابِضَـةٌ" في البيت في المرحلة الثانية من السُّلَّم الحِجَاجي، والذي استطاع الشاعر أن يوظِّفه هنا في سبيل إبراز مدى إظهار الصعوبة والمشقة في الوصول إلى محبوبته، فدون المحبوبة سيكون الأعداء في المرحلة الأولى، والمضارب الأُسْد في المرحلة الثانية، ثمَّ الكِنَاس الملتفة للظبي، وأخيرًا تأتي الغابة الشائكة المحيطة بهذه الكِنَاس، ويمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي متمثلًا كما يلي:

الوصول إلى بيت المحبوبة

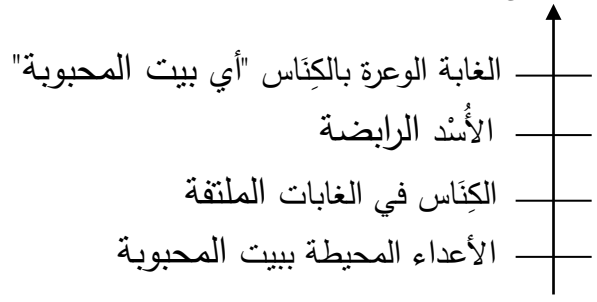

(١) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص٩.

حيث ابتدأ الشاعر سُلَّمَه الحِجَاجي ببيان مدى صعوبة ووعورة الاهتداء إلى مكان المحبوبة المُحَاط في مطلع هذا السُّلَّم الحِجَاجي بالأعداء، وهي كلمة عامة تشمل كافة الأعداء، لكنَّه بدأ يُخَصِّص في الدرجة الثانية من السُّلَّم، حيث استعمل واو الحال في الجملة الرئيسية "الأُسْدُ رَابِضَةٌ"؛ ليوظِّف صيغة اسم الفاعل "رَابِضَة" في جملة الحال؛ لتكون بذلك هي الصيغة المسندة إلى "الأُسْد" في هذه الجملة، وأمَّا الدرجة الثالثة فهي الكِنَاس الملتفة، وهي هنا جُحْرُ الظباء، وهذا يشي بوعورة الوصول والاهتداء إليها، وكل ذلك جاء وسط ذيل السُّلَّم المتمثل في الغابات الوعرة المحيطة ببيت المحبوبة.

ثالثًا: توظيف المصدر الميمي

هو اسمٌ " يدل على معنى المصدر مبدوء بميم زائدة لغير المفاعَلَة، نحو: أهلًا بمقدومكم؛ أي: بقدومكم"[(١)]، ويستعمل المصدر الميمي كأحد أصناف الخطاب الحِجَاجي، الذي يستخدمه المرسل إلى الاستدلال على أقواله بالحِجَاج اللُّغوي، الذي يلجأ من خلاله لإقناع المتلقي، وهو أحد الصِّيغ الصَّرفيَّة التي وظَّفها الطُّغرَّائي في خطابه الحِجَاجي الدال على المصدر الميمي، ونظير ذلك ما جاء في قوله:

فَـــلَا صَـــدِيقٌ إِلَيْـــهِ مُشْـــتَكَى حَزَنِـــي وَلَا أَنِـــيسٌ إِلَيْـــهِ مُنْتَهَـــى جَـــذَلِي[(٢)]

فقد استطاع الشاعر أَنْ يوظِّف صيغتي اسمي المفعول في صدر وعجز البيت بمقابلة إبداعية، تمثَّلت في قوله: "مُشْتَكَى حَزَنِي"، و"مُنْتَهَى جَذَلِي"، بل إنَّه قابل ذلك بصيغتي النفي المتمثلة في "لَا صَدِيقٌ وَلَا أَنِيسٌ"، وعليه تتم المقابلة المتكاملة بين العناصر الأربعة الصَدِيقٌ، والمُشْتَكَى، والأَنِيسٌ، والمُنْتَهَى، وعليه يكون السُّلَّم الحِجَاجي متمثلًا في شكوى الصديق، وحزن المشتكي، ومنتهى الجدل، ووحشة الأنيس، ويمكن أنْ يكون الترتيب السُّلَّمي كما يلي: يأتي في قمة السُّلَّم الحِجَاجي المنتهى الجدلي، ثم يأتي في الدرجة الثانية حزن ووحشة الأنيس، ثم مشتكى الصديق، ومن ثمَّ انعدام الصداقة في المرتبة الأخيرة بحيث تكون في ذيل السُّلَّم الحِجَاجي، وعليه يكون شكل السُّلَّم الحجاجي:

(١) الأشموني، أبو الحسن. (١٩٥٥). شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، (٣٣٦/٢).

(٢) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص٥.

قمَّة اليأس والقنوط عند الشاعر

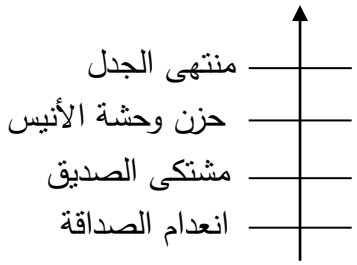

رابعًا: توظيف اسم المفعول

ارتبط مفهوم الخِطَاب الحِجَاجي في الأصل بطرح قضية وإحداث نقاش فيها، بحيث يسعى المُخَاطِب فيها إلى الاستدلال على أقواله بقصد حصول الإقناع لدى المتلقي وهو المُخَاطَب؛ أي المفعول، "ويصنَّف اسم المفعول على أنَّه من الأوصاف الحِجَاجية المستعملة"(١)، وهو أحد الصِّيغ الصَّرفيَّة الدالة "على معنًى مجردٍ، غير دائم"(٢)، "للدلالة على ما وقع عليه الفعل"(٣)، فلابدَّ من الدلالة على الأمرين معًا(٤)، ومن ذلك ما أنشد قوله:

غَلَـــى بِنَفْسِـــي عِرْفَـــانِي بِقِيمَتِهَـــا فَصُـــنْتُهَا عَـــنْ رَخِـــيصِ الْقَـــدْرِ مُبْتَـــذَلِ(٥)

جاءت صيغة اسم المفعول في البيت الحادي والأربعين قافيةً للبيت؛ فهي منتهية بحرف اللام، وعلاوةً على أنَّها صيغة اسم المفعول من الفعل "ابتذل" إلَّا أنَّها جاءت صفةً ثانيةً للإنسان الوغد الحقير بعد الصفة الأولى، وهي "رَخِيصِ الْقَدْرِ"؛ لتمثِّل هنا اسم المفعول قمة الابتذال في السُّلَّم الحِجَاجي الذي وظَّفه الشاعر في هذا البيت، فمن الواضح أنَّ الشاعر معتدٌّ بنفسه فوق المعتاد لدرجة أنَّه ترفَّعت شخصيته عن كل سفاسف الأمور ورخيصها ومبتذلها، ويمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي لهذا البيت كما يلي:

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٤٨٩.

(٢) حسن، عباس. النحو الوافي، (٢٧١/٣).

(٣) شاهين، عبد الصبور. (١٩٨٠). المنهج الصوتي للبنية العربية: "رؤية جديدة في الصرف العربي"، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص١١٦.

(٤) حسن، عباس. النحو الوافي، (٢٧١/٣).

(٥) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص١٣.

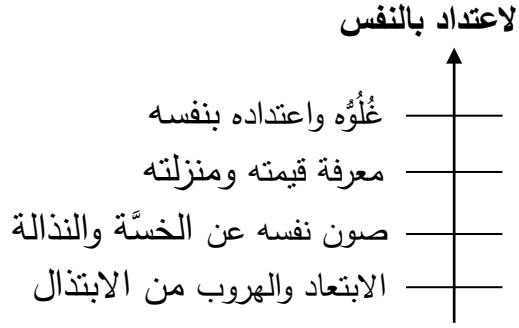

إذْ ابتدأ الشاعر بدايةً قويةً معتدًّا بنفسه، وغاليًا بها، ومعترفًا بقيمة منزلته وشخصيته؛ ليصل بعد ذلك إلى هدفه وهو صيانة نفسهِ عن الخسَّة والدناءة، وعليه يكون الشاعر استطاع أن يوظِّف صيغة اسم المفعول "مُبْتَذَل" في خِطَابه الحِجَاجي، وذيَّل بها البيت إشارةً إلى صون نفسه عن الخسَّة والدناءة.

خامساً: توظيف أفعل التفضيل

ومن ملامح استعمال المُخَاطِب لأفعل التفضيل كأحد وسائل الإقناع في الخِطَاب الحِجَاجي الذي يستخدمه المرسل من أجل إقناع المرسل إليه بـ "استعماله في الإثباتات"(١)، وهو أحد الأوصاف المشتقة المبنية "على أفعل؛ لزيادة صاحبه على غيره في أصل الفعل"(٢)، وذلك "للدلالة على التفضيل"(٣)، ولاسم التفضيل من حيث المعنى ثلاث دعائم يقوم عليها:

١. أنَّه يأتي على صيغة أفعل، وهو اسم مشتق.
٢. شيئان يشتركان في معنًى خاص، زاد أحدهما في صفته الخاصَّة على الآخر في الصفة نفسها.
٣. أن يتجرد عن معنى التفضيل، ويُراد به ثبوت الوصف لصاحبه(٤).

وقد قلَّ استعمال اسم التفضيل في السُّلَّم الحِجَاجي، إذ لم يتمكن الطُّغرائي استثماره في قصيدته في حِجَاجه الخِطَابي مستعملًا إيَّاه علمًا بأنَّ صيغة الثلاث التي نصت عليها كتب النحاة، وهي:

- أن يكون مجردًا من أل والإضافة.

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٦.
(٢) الأزهري، خالد. (د.ت). شرح التصريح على التوضيح، تصحيح ومراجعة: لجنة من العلماء، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (١٠٠/٢).
(٣) محمد، أبو عبد الله بدر الدين. (د.ت). شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم، تحقيق وضبط وشرح: عبد الحميد السيد عبد الحميد، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، ص٤٧٨.
(٤) النجار، محمد عبد العزيز. (١٩٨١). ضياء السالك إلى أوضح المسالك، (د.ط)، مطبعة مصر الجديدة، القاهرة، (١١١/٣).

- أن يكون محلًى بأل.
- أن يكون مضافًا[١].

وبناءً على ذلك يكون لاسم التفضيل ثلاث استعمالات، وهي:

الاستعمال الأول: قد يستعمل المُخَاطِب القسم الأول بشروطه، ذاكرًا المفضل منه، مثل:

السكر أحلى من الملح، والصيف أحر من الشتاء

والمقصود أنَّ "السكر في حلاوته أقوى من الملح في ملوحته، والصيف في حرارته أشد من الشتاء في برودته، فليس بين كل اثنين اشتراك في المعنى إلَّا في مطلق الزيادة المجردة المقصورة على صاحبها"[٢].

فالمشترك بين المعنيين "هو حِجَاجيَّته سُلَّمِيًّا، وذلك بتصنيفه وقت التَّلفُّظ بالخِطَاب"[٣]، في درجة أعلى من سُلَّم المشروبات في الأوَّل، وشدة الحرارة وبرودتها في الثاني.

الاستعمال الثاني: وقد "يستعمل المرسل القسم الثاني من أفعل التفضيل وهو المقرون بأل"[٤]، ومثال على ذلك:

- زيد الأفضل.
- منتجاتنا الأجود.
- المملكة العربية السعودية الأولى في إنتاج النفط.

فائدة هذا الاستعمال: تكمن فائدة الاستعمال الثاني في "وضع ذاته في أعلى السُّلَّم بما تفيده (أل)، وثانيها عدم ذكر المفضل عليه، وفي هذا منجاة من المسؤولية، إذ إنَّه لا يتلفظ بما يُعدُّ جريرة في حقه..."[٥].

(١) ابن هشام، جمال الدين بن عبد الله الأنصاري. (١٩٩٤). أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: بركات يوسف هبود، مراجعة وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج٣، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (٣/٢٦٤-٢٥٦).

(٢) النجار، محمد عبد العزيز. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، (٣/١١١).

(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص٥٢٧.

(٥) المرجع السابق، ص٥٢٧.

الاستعمال الثالث: ولربما "يستعمل المُخَاطِب في خطابه الحِجَاجي القسم الثالث، وهو اسم التفضيل المضاف"، إذ إنَّ المرسل – هنا – يستعمل "اللفظ (أفضل) مضافًا إلى المفضل إليه"(١)، شريطه "ألَّا يقع بعد أفعل (مِنْ) الجارَّة للمفضول"(٢)، وذلك "للدلالة على تصنيفه إيَّاه في أعلى السُّلَّم، مثل: أبرز أديب تركي الحمد"(٣)، ونظير ذلك قولك: الباحثون أنفع الناس لخدمة الوطن، ومنه ما جاء في قول الطُّغرائي في البيت الثامن والعشرين في قوله:

أَعْدَى عَدُوّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِه فَحَاذِرِ النَّاسَ وَاصْحَبْهُمْ عَلَى دَخَلِ(٤)

حيث تجلَّت المقابلة في قول الشاعر في فعلي التفضيل المضافين في قوله "أَعْدَى عَدُوّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِهِ"؛ ليسطِّر بذلك مُحَاجَّةً مُلْزِمةً وصلت حدَّ الحكمة والحقيقة في التقرير الملزم، حيث أضاف الشاعر أفعل التفضيل الأوَّل إلى العدو، في حين أضاف أفعل التفضيل الثاني إلى الاسم الموصول؛ لأنَّ صلته الثقات من الأصدقاء وما أقلَّهم، وعليه يمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي في قول الشاعر متمثلة فيما يأتي: محاذرة الناس، ثمَّ أعدى الأعداء، ومن ثمَّ المصاحبة على دخل، وبعد ذلك أدنى الثقات، فتكون قمَّة السُّلَّم الحِجَاجي متمثلة في محاذرة الناس، ثمَّ يأتي بعدها مباشرة تصنيف أعدى الأعداء، ثمَّ في الدرجة الثالثة مخالطة الناس ومصاحبتهم على دخل، وأخيرًا تأتي أدنى الثقات من الأصدقاء، وكما تجلَّت المقابلة في إلزام الحُجَّة بأنَّ "أَعْدَى عَدُوّكَ" وهو أفعل التفضيل هو أقرب وأوثق من تثق به، وهذا يظهر العنصر الحِجَاجي الملزم في المقابلة بين "أعدى العدو وأدنى الثقات من الأصدقاء"، وعليه يكون السُّلَّم الحِجَاجي كالآتي:

انعدم الثقة بالأصدقاء والأقارب

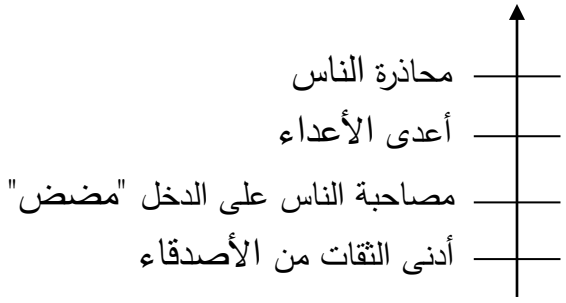

(١) المرجع السابق، ص٥٢٧.

(٢) النجار، محمد عبد العزيز. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، (١١٨/٣).

(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٧.

(٤) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص١٤.

ولعلَّ في استعمال الشاعر للجملة الاسمية المسند والمسند إليه وتصديرهما للبيت وهما صيغتا أفعل التفضيل "الأعدى والأدنى"؛ ليوظِّفهما في إقرار الحقيقة المُرَّة التي انغرست في كيان الشاعر؛ نتيجةً لمخالطته، ومعاملته للناس، والحذر منهم وخاصَّةً الأصحاب والأقرباء.

أهمية أفعل التفضيل:

وتكمن أهمية أفعل التفضيل في الخِطَاب الحِجَاجي في:

١. "أنَّه يتضمن صِيغًا تمكِّن المرسل من إيجاد العلاقة بين أطراف ليس بينها أي علاقة"(١)، وذلك عن طريق "اشتراك ثلاثة أطراف في العلاقة؛ وذلك لاشتراك الطرف الأوَّل مع الطرف الثاني في خاصيَّة معيَّنة، واشتراك الطرف الثاني مع الطرف الثالث في خاصيَّة معيَّنة، فينتج عنه علاقة بين الطرف الأوَّل وبين الطرف الثالث، وهذا ما ينصُّ عليه بيرلمان وزميله على أنَّه من صور التعدية، مثل: من يدَّعي تفوُّق العدَّاء عطية.

إذ يفهم أنَّه وضع تفوُّق عطيَّة في أعلى السُّلَّم بوصفها الحُجَّة الأقوى، وكان الاحتجاج بها عن طريق القياس والتَّعدِّي، إذ إنَّ عطية أسبق من نور ومن سعيد – أيضًا – "وهذا ما يسمى عند طه عبد الرحمن بقاعدة تعدِّي التفاضل"(٢).

٢. كما أنَّه "يُمَكِّن المرسل من ترتيب الأشياء ترتيبًا معيَّنًا، فبدون استعماله ما كان لها أن تترتَّب، ولذلك يصنِّفُهُ بيرلمان في حِجَجِ التَّعدِّية"(٣).

ولذلك يُعدُّ مجرد "تلفظ المرسل بالحُجَّة من أسباب تصنيفها في أعلى السُّلَّم، وذلك لاختيارها دون غيرها، ولهذا فهو يضع كل ما عداها دونها في الترتيب السُّلَّمي"(٤).

سادساً: توظيف صيغ المبالغة

من التقنيات التي يلجأ إليها المرسل في إقناع متلقيه، "توظيف المتكلم للطرائق الاستدلالية المختلفة بحيث يجعل خطابه يتحقَّق في العالم الخارجي كفعل حِجَاجي؛ أي من اللُّغة إلى التداول"(٥)،

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٨.

(٢) عبد الرحمن، طه. (١٩٨٧). مراتب الحِجَاج وقياس التمثيل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، ع(٩)، ص١٤.

(٣) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٨.

(٤) المرجع السابق، ص٥٢٨.

(٥) عبد الرحمن، طه. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ض٣٧.

وذلك يكون باستخدام الشاعر لصيغ المبالغة كإحدى وسائل آليات الإقناع للمتلقي، إذ إنَّها تُعدُّ من "الأوصاف المشتقة من الصِّيغ الصَّرفيَّة التي تمكِّن المرسل من بناء السُّلَّم الحِجَاجي، إذ يمكن استعمال تلك التي تحمل سِمَة هذا الترتيب في تكوينها الصَّرفي...، فرغم شروطها الأصلية التي تتحد فيها، إلَّا أنَّها تفضُل غيرها من الأوصاف، مثل: اسم الفاعل، كما تتفاضل فيما بينها، ولإدراك المرسل لهذا التفاضل بحكم تكوينه اللُّغوي ومهارته التداولية، فإنَّه يستعمل منها ما يعبِّر عن درجة الحُجَّة التي يريد أن يعبِّر بها في خِطَابه"(١)، وذلك من أجل تحقيق الهدف الذي يريد تحقيقه وهو حصول الإقناع لدى المُخَاطب، وهذا ما جعله يستخدم "صيغ المبالغة، وهي: فعول، وفعَّال، ومفعال، وفَعِلٌ، وقد جاء: فعيل كرحيم وعليم وقدير وسميع وبصير"(٢)، فهذه الصِّيغ الخمس أجمع معظم الصَّرفيين على أنَّها أشهر أوزان صيغ المبالغة، والأصل في "صيغ المبالغة أنَّها تُؤخذ من مصدر الفعل الثلاثي"(٣)، ولهذا قيل بأنَّها "محوَّلة عن صيغة فاعل"(٤)، من أجل تحقيق هدفين، هما:

١. الدلالة على الوصف بإيقاع الحدث(٥).
٢. دلالتها على قصد المبالغة والتكثير(٦).

ويعقب الشهري على استعمال صيغ المبالغة بقوله: "بيد أنَّه يمكن استعمال صيغ المبالغة حِجَاجيًا باعتبارها أوصافًا تستلزم فعلًا معيَّنًا ذا درجات سُلَّمِيَّة، إذ ليس المهم في الحِجَاج التصنيف فحسب، بل المهم دلالة التصنيف"(٧)، ومثل ذلك ما جاء في قوله:

وَذِي شِـــطَاطٍ كَصَـــدْرِ الـــرُّمْحِ مُعْتَقَـــلٍ لِمِثْلِـــهِ غَيْـــرِ هَيَّـــابٍ وَلَا وَكِـــلِ(٨)

(١) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢٩.
(٢) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (١٩٨٨). الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج١، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١١٠/١).
(٣) الفوزان، عبد الله صالح. تعجيل الندى بشرح قطر الندى، ص٢٧٢.
(٤) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري. (١٩٦٨). شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص٣٩٢.
(٥) شاهين، عبد الصبور. المنهج الصوتي للبنية العربية: "رؤية جديدة في الصرف العربي"، ص١١٥.
(٦) الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن جابر الهواري. (١٩٩٩). شرح ألفية ابن مالك، تعليق وتحقيق: عبد الحميد السيد عبد الحميد، ط٢، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (١٤٣/٣).
(٧) الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٣٠.
(٨) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص٦.

حيث تتمثل صيغ المبالغة – هنا – في قول الشاعر "هَيَّاب، ووَكِل" وهما صيغتان مشهورتان من صيغ المبالغة، جاءتا على وزن فعَّال ووزن فَعِل، وقد ذيَّل الشاعر بهما البيت كنتيجة حتمية في إثبات الحِجَاج العقلي، وأنَّه كما قد قرَّر في الأبيات السابقة من انعكاس الآمال وعدم تحقُّقها رغم الكد والاجتهاد، وعليه يمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي مُتمثلًا في المراحل التالية: ذوي الشِطاط، وصدر الرمح، وغير هَيَّاب، ولا وَكِل، فتكون "لَا وَكِل" هي قمة الهرم رغم مجيئها في ذيل البيت، يليها غير هَيَّاب، ثمَّ صدر الرمح، وأخيرًا ذوي الشَّطط في ذيل السُّلَّم، ويمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي كالآتي:

غاية التجريد في الأنا عند الشاعر

ومنه ما جاء في قوله:

أَهَبْتُ بِالْحَظِّ لَوْ نَادَيْتُ مُسْتَمِعـــــًا وَالْحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شَـــغَلِ[١]

لقد استعمل الشاعر صيغة اسم المبالغة "بِالجُهَّالِ" في البيت السابع والثلاثين؛ لتمثل مرحلة اليأس والقنوط عند الشاعر من أعدائه، فجاءت هذه الصيغة في ذيل السُّلَّم الحِجَاجي كتبريرٍ منه لموقفه وحالته من هؤلاء الحُسَّاد والجُهَّال من أبناء قومه، حيث لَعِبَ الحَظُّ شوطًا بعيدًا في عدم وصوله إلى هدفه الذين وقفوا دون تحقيقه وهم أعداؤه، ويمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي كالآتي:

الوصول إلى الغاية والهدف

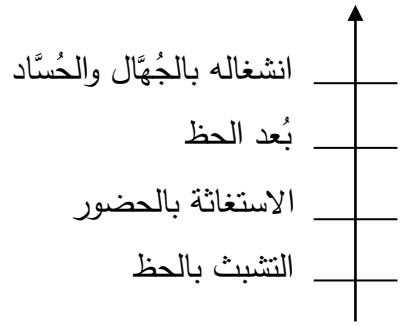

(١) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص١٢.

ابتدأ الشاعر سُلَّمَه الحِجَاجي بالتشبث بالحظ ومنادته وجعله ذيلًا للهرم من سلَّمه، لكنَّه بعد ذلك سرعان ما تبدَّلت حظوظه وأمانيه بمناكفة مستمعيه وتنكُّبهم له، ثمَّ يأتي الحظ مرة ثالثة؛ ليسجل مرحلة القنوط واليأس عند الشاعر، وتوَّج الشاعر ذلك بتوظيفه لصيغة المبالغة "بِالجُهَّالِ" بانشغاله والحسَّاد في نهاية السُّلَّم الحِجَاجي، إشارةً إلى اليأس والقنوط التي أحاطت بموقف الشاعر. وتجدر الإشارة إلى افتقار اللامية من توظيف صيغ المبالغة سوى البيتين اللذين تعرضنا لهما هنا.

سابعاً: توظيف المصدر:

يُعدُّ المصدر في المشتقات العربية أصل الاشتقاق، الذي تؤخذ منه بقية المشتقات عند البصريين، إذ إنَّه يدلُّ على "زمان مطلق والفعل مقيد بزمانه، وأنَّ المصدر يدلُّ على معنًى واحد، والفعل يدلُّ على معنيين: الحدث والزمان، والواحد يكون قبل الاثنين، وأنَّ المصدر اسم، والاسم أولى أنْ يكون أصلًا.

وذهب الكوفيون إلى أنَّ الفعل هو أصل، ولهم أدلتهم منها: أنَّ الأفعال عاملة في المصادر، والعامل أصل للمعمول، وأنَّ المصدر يؤكَّد به الفعل"[(١)]، ولذلك يمكن الاعتماد عليه كأداة حِجَاجية، ينفذ من صيغته الشاعرُ للوصول إلى هدفه ضمن البُنية العامة الصِّياغية في النص الشِّعري؛ فهو يحتلُّ أصل الاشتقاق، ومن ثمَّ يمكن التبويب عليه ضمن أبنية الصِّيغ الصَّرفيَّة التي لجأ إليها الطُّغرائي في هذه اللامية، ومنه ما جاء في قوله في البيت الخامس والخمسين:

فِيْمَ اقْتِحَامُكَ لُجَّ الْبَحْرِ تَرْكَبُهُ وَأَنْتَ يَكْفِيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الْوَشَلِ[(٢)]

حيث وظَّف الطُّغرائي صيغة "اقْتِحَامُكَ" المصدرية المضافة لكاف الخِطَاب، والتي يقصد به نَفْسَه المُخَاطَبة في مقام التجريد، فهو يُجرِّد من نفسه شخصًا آخر يخاطبه ويؤنِّبه، وعليه يمكن أن يكون السُّلَّم الحِجَاجي في هذا البيت كما يلي:

(١) الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد. (د.ت). الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (١/٢٤٥-٢٣٥).

(٢) الطُّغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد. شرح لامية العَجَم للطُّغرائي، ص١٦.

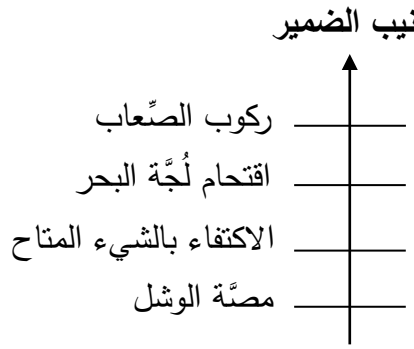

حيث استفهم الشاعر في صدر البيت سرَّ اقتحامه للصِّعاب والمشاق التي جشَّمته هذه الأهوال والصِّعاب في سبيل تحقيق غايته، ولكن دون جدوى، فيندرج السُّلَّم الحِجَاجي في هذا البيت فيما يُعرف عند المتأدبين بتأنيب الضمير والندم على ما جرى، وقد جعل الشاعر ركوب الصِّعاب قمَّةً للسُّلَّم الحِجَاجي وغايةً منشودةً له، في حين جاء المصدر "اقْتِحَامُكَ" مضافًا لكاف الخِطَاب (يقصد به الشاعر نفسه)، كفاتحة استهلَّ بها هذا التأنيب المُزْجِر له عن ركوب البحر في المرتبة الثالثة للسُّلَّم الحِجَاجي، وقد كان يكفيه من جميع ذلك في المرتبة الرابعة من السُّلَّم الحِجَاجي، وهي المصَّة اليسيرة من الوشل، ولعلَّ الشاعر قد استلهم هذا البيت من الفكرة السائدة لاقتحام الأهوال؛ ليبرِّر متاعب وآفات الوصال إلى مبتغاه.

نتائج البحث:

بعد هذه الرحلة الممتعة في ثنايا لامية الإمام العميد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصَّمد الملقب بـ "مؤيد الدين الأصبهاني" الطُّغرائي (ت ٥١٣هـ). وتطوافنا مع توظيفه للصِّيغ الصَّرفيَّة المختلفة كبدائل وركائز في السُّلَّم الحِجَاجي الذي لجأ إليه الشاعر للوصول إلى أهدافه في هذه القصيدة الغرَّاء تبيَّن لنا ما يلي:

١. لقد ثبت لدينا من عدَّة وجوه مدى براعة الشاعر في توظيف الصِّيغ والأبنية الصَّرفيَّة كَمَعْلَمٍ حِجَاجي لجأ إليه مرارًا في لاميته.
٢. لما كانت الصِّيغ الصَّرفيَّة المختلفة كأدوات حِجَاجية بارزة في اللامية، فيمكن القول أن يكون للصِّيغ الصَّرفيَّة أثرٌ واضحٌ في التداولية الحديثة، فقد استطاع الشاعر أن يوظِّفها مِرارًا في القصيدة، كما أنَّها احتلَّت مواضع رئيسة على السُّلَّم الحِجَاجي، فكونها وسائل حِجَاجية يفصح من خلالها بما لا يدعِ للشك أنَّه يمكن للتداولية الحديثة الاستفادة من المباني الصَّرفيَّة المختلفة في إبراز الأبعاد التداولية المختلفة كمحاور رئيسة في السُّلَّم الحِجَاجي.
٣. لقد أحسن الشاعر توظيف الصِّيغ الصَّرفيَّة المختلفة كأدوات في إثبات السُّلَّم الحِجَاجي ومراحله، وصولًا إلى هدفه الأصيل المتمثل في إيصال الرسالة للمتلقين.

٤. أثبتت الدراسة الحضور البارز لصيغ اسم الفاعل في القصيدة، حيث أفرط الشاعر في توظيف هذه الصِّيغة على حساب الصِّيغ الأخرى، وإن كان لذلك من دلالة فهي تشير إلى مدى اعتداد الشاعر بالأنا.